كانوا أحفظ الناس لهديه صلى الله عليه وآله وسلم وانه لا يخلو عصر من طائفة أو أفراد من الهداة المصلحين منهم وان فتن الكثير منهم بغلاة المحبين الخ والعمل المناسب وان فتن بعضهم واغتر بشرف نسبه وترك العلم والاعمال النافعة غافلا عن قول جده علي الخ لان اثبات الفتنة للاكثرية ينافي آية التطهير كما لا يخفى . ثم ذكرتم في حديث الثقلين رواية عن أبي هريرة وأن فيها ابدال لفظ العترة بلفظ السنة، وأن لا معارضة بينها الخ يظهر للعاجز ان رواية الابدال المذكورة على حذف مضاف أي حملة سنتي فتكون مخصصة للرواية الاولى كما ان الاولى مخصصة للثانية فالمعنى حملة سنتي الذين هم من عترتي ، أو عترتي حملة سنتي ، وأيضا يظهر أن المراد بالطائفة من أمته التي لاتزال ظاهرة على الحق قوامة على أمر الله الى أن تقوم الساعة هم عترته الحاملون لسنته والله أعلم

من ملاكه سلخ جمادى الاولى سنة ١٣٣٦

ن . ه . د

رحلة الحجاز

٩

النفر من منى الى مكة

لما كان يوم النفر رمينا الجمرات الآخر مرة وفي الاصيل شددنا الرحال ونفرنا من منى هابطين الى مكة المكرمة حامدين لله شاكرين له ما وفقنا لاتمام مناسكنا ، راجين من فضله وإحسانه أن يكون حجنا مبرورا، وسعينا مشكورا ، وعملنا مثابا ، ودعاؤنا مستجابا ، وياالله ما أحلى الشعور الذي يستولي على المرء في أثناء هذا النفر ، فانه على فراقه لذلك المعهد القدسي الذي وصفنا في الفصل السابق ماله في النفس من عظيم الانس تراه يفارقه قرير العين مطمئن القلب جم السرور فرحا بفضل الله ورحمته ، وذلك شأن الانسان بعد إتمام كل عمل من الاعمال النافعة التي يهتم بأمرها ، يفرح في عاقبة إتمامه بقدر ما كان من عنايته به وتعبه فيه ، وبقدر مكانة العمل نفسه من نفسه ، وما يرجو من فائدته ونفعه ، سواء كان ذلك في دنياه أو دينه ، فمن لم

يأل جهدا في أداء المناسك أفاض من منى وهو بحيث وصفنا من الغبطة الروحية ، والسكينة والطمأنينة ، التي يعبر عنها بعض الناس براحة الضمير ، ومن قصر في شيء من تلك الأعمال ولو بترك العزيمة ولا فضل خالج غبطته وطمأنينته بعض التمني ولوم النفس : ليتني فعلت كذا ، وسأفعل كذا في حج آخر ان شاء الله تعالى . كما تمنى بعض رفاقنا لو باتوا الليل كله في المزدلفة معي

المقام بمكة بعد الحج

قد كنت أرجأت أمورا مما أنوي عمله في مكة الى ما بعد الحج (منها) ماأشرت اليه قبل من زيارة جميع الذين تفضلوا بزيارتي ولم تتيسر لي زيارتهم قبل الحج (ومنها) زيارة كثير من المعاهد التاريخية والآثار النبوية في مكة وضواحيها لئلا أخلط ذلك بأعمال النسك كما يفعل بعض العوام الذين يعدون بعض ذلك من أعمال النسك أو من الاعمال المطلوبة شرعا ولو لغير النسك، ولا يطلب شيء من ذلك شرعا، لا وجوبا ولا ندبا، الا من كانت له نية صالحة في شيء من ذلك وجاء به على وجه يعرفه الشرع ولا ينكره . (ومنها) شراء أشياء كثيرة مما يباع في مكة بعضها لانفسنا وبعضها لاجل اهدائه لاصدقائنا (ومنها) وهو أهمها شرح ما عندنا من الحقائق في الحالة السياسية الحاضرة لمن يجب شرحها له بعد أن كنا فتحنا أبواب بعض مسائلها فكان الحديث في أكثرها اجماليا ولا يغني فيها الا البيان والتفصيل

لم نلبث أن بدا لنا ما لم نكن نحتسب وفاجأنا ركب المحمل المصري بسفره يوم الخميس ١٤ ذي الحجة من مكة المكرمة الى جدة ، وعلمنا انه قرر ركوب البحر في ثاني يوم وصوله اليها ، ولو سافرنا معه لما أمكننا أن ندرك شيئا مما نريد من مكة ، فعزمنا على التخلف عنه يوما واحدا وهو منتهى ما نملك من التأخير ، وما ذا عسى يغني عنا اليوم الواحد مما كنا نقدر له أسبوعا كاملا لا نستكثره عليه ؟ على اننا أدركنا في ذلك اليوم بتوفيق الله تعالى وعناية المحبين ما لا يدرك الا في أيام ، فابتعنا بعض ما نحب من الحلي والحلل من منسوجات الهند الموضونة وغير الموضونة وبعض منسوجات الشام وبلاد الترك والصين وغير ذلك مما يشتري مثله الحجاج عادة ، وكان الفضل في شراء ذلك في وقت قصير مع أمن غبن التجار لنا فيه لصديقنا الشيخ

حسين باسلامه وهو من أشهر أدباء مكة ونجـارها ، وقد تركنا ما كنا نبغي من الزيارات بأنواعها ، ولكن الله تعالى منّ علينا بما هو خير منها كلها ، وهو التشرف بدخول بيته العتيق المعظم والصلاة والدعاء فيه

دخول الكعبة المعظمة

دخلت المسجد الحرام في وقت الضحى من يوم الجمعة (١٥ ذي الحجة) فوجدت باب البيت العتيق المعظم مفتوحا وفيه بعض شبان آل الشيبي الكرام فرأيت الفرصة سانحة للتشرف بالدخول فيه والوقت هادئ لا يكدر صفوه احتفال ولا ازدحام ، وكان يرافقني الشيخ حسين باسلامه فبلغ من هنالك من الشيبيين رغبتي فقابلوها بالقبول والارتياح ، فتوضأت من بئر زمزم وأدلى الشيبيون لي السلم ، فصعدت فدخلت متذكرا دخول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، متمثلاً حاله في ذلك اليوم العظيم يوم الفتح ، ففاجأني من الهيبة والخشوع والبكاء ما لم يسبق له نظير ، ووقفت زمنا لا أستطيع فيه الاحرام بالصلاة ولا النطق بالتكبير ، وقد ذكر لي رفيقي باسلامه في هذه الحال المكان الذي صلى فيه صفوة الله من خلقه وعينه بالاشارة على حسب ما بينه الحافظ ابن حجر في شرح البخاري فصليت فيه ركعتين هما أرجى ما أحتسبه عند الله تعالى من النطوع ، ثم صليت في كل جهة من الجهات الثلاث الاخرى ركعتين

ودخول الكعبة ليس من مناسك الحج خلافا لما حكاه القرطبي عن بعض العلماء ، واختلفت الرواية في دخول النبي (ص) البيت وصلاته فيه . والتحقيق الذي جمع به بين الروايات الصحيحة المتعارضة أنه دخله في عام الفتح لا في حجه ولا في عمرته وأنه صلى فيه ركعتين بين العمودين المقدمين جاعلا الباب وراءه وبينه وبين الجدار الذي صلى اليه ثلاثة أذرع بذراع الآدمي تقريبا لا تحديدا ، وليس من السنة تتبع المواضع التي صلى فيها النبي (ص) للصلاة فيها ، ولا مواقفه في النسك كما تقدم في الكلام على موقفه في عرفات ، وكذا سائر عباداته ، ولم يرو عن أحد من علماء الصحابة انه فعل شيئا من ذلك الا عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) فهو فعل غير مشروع وغير ممنوع ، الا أن يؤتى به على وجه يكون به بدعة وهو جعله كالمشروع بالتزامه أو

بالاجتماع عليه كالشعائر، فاذا خلا من شبهة البدعة كان كبير الفائدة لذي اللب ، لما فيه من حسن الذكر الذي يخشع له القلب، ولعله لم يشرع لئلا يترتب عليه الحرج الشديد بالتزاحم والتعذر فعله على العدد الكثير كما لو أراد كل حاج أن يقف حيث وقف (ص) ولسد ذريعة الشرك اذ يخشى على ضعيف العلم بالدين أن يغلو فيه فيجعل للرسول شركة في العبادة التي يتتبع آثاره فيها (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) وانما ذلك بتوجيه الوجه واسلامه اليه وحده في العبادة

﴿ وداع الامير وصفاته ﴾

علمت ان أمثل الاوقات لوداع الامير ما بعد صلاة الجمعة فقصدت عقب الصلاة حجرته التي يصلي فيها وهي في جدار الحرم الجنوبي فألفيته جالسا في القسم الخارجي من الحجرة وفي حضرته بعض الكبراء وفي مقدمتهم رئيس الوكلاء والشيخ محمد صالح الشيبي الكبير رئيس مجلس الشيوخ، وكان معي السيد عبدالله الزواوي وكيل المجلس، وعلمنا انه كان في القسم الداخلي حيث صلوا الجمعة نجله الشريف عبدالله وكيل الخارجية مع بعض الناس. فلما دخلت على الامير تلقاني بالحفاوة والاكرام، فاستلمت يده لتقبيلها فحاول تواضعه التمنع من ذلك ، ولما جلسنا تفضل بكلمات من المجاملة كادت تذيبني خجلا ، ونكتفي من كلامه بما دون الاطراء الذي تقتضي الحال حذفه وهو قوله موجها الخطاب للحاضرين : هذا فلان ... صاحب المنار كلكم تعرفونه وتعرفون ماله من الغيرة والاخلاص والجهاد في خدمة الاسلام .. وهو قد جاءنا في هذا العام حاجا .. وكنا نتمنى أن يبقى عندنا ولكنه صاحب عمل كبير في مصر وهو قد رأى وعرف كل شيء عندنا وظهر له اننا الى الآن لم نقف امام عتبة عمل من الاعمال (وكان ذكر في سياق حديثه ما ينوي من ضروب الاصلاح العلمي والعملي) التي لا بد لنا منها، وأن همنا محصور في اخراج المتغلبة من بلادنا ولا يتم ذلك الا بفتح المدينة المنورة فمتى تم لنا ذلك وأردنا البدء بالاصلاح الذي نبغيه فاننا نرجو من غيرته أن لا نمنعه أعماله في مصر من اجابتنا الى ما نطلبه من معاونته وارشاده ، وهو الآن يقدر أن يخدم حركتنا في مصر أكثر مما يخدمها هنا لو أقام بيننا

فلما أتم كلامه شكرت له ما أراه مبالغة في حسن الظن والمجاملة ، وذكرت ان

هذا التواضع عن كمال الرفعة قد أخجلني حتى عقد لساني ولم يبق لي الا أن أقول إنني أعد نفسي كجندي صغير مستعد في كل آن لخدمة دينه وأمته بالاخلاص، وأعاهدكم امام بيت الله تعالى على انني لا أدعي الى عمل أستطيعه في خدمتهما الا وأبذل فيه كل جهدي مادمت معتقدا أنه حق، وانه لا يثنيني عن ذلك منفعة شخصية ولا أهل ولا ولد، فانني نشأت على العمل بما يوجبه عليّ اعتقادي ويطمئن اليه قلبي. ثم قمنا وتقدمت لوداعه، ومحاولة تقبيل يده فأخذ بيدي وتوجه بي الى بيت الله عزوجل من حيث يرى من نافذة المكان وقال: أسأل رب هذا البيت ان يجمعنا ولا يجعل هذا آخر العهد بيننا. ثم ودعت الحاضرين وانصرفت حامدا شاكرا

صفات الامير وشمائله

قد آن أن أذكر في هذه الرحلة بعض ما علمته واستنبطته من صفات هذا الامير الجليل ومزاياه التي يوافق ذكرها مقتضى الحال فأقول: انه حوى جل أخلاق ملوك الشرق وأمرائه العظماء، وانفرد بصفات ورثها من أجداده الشرفاء، فمن ذلك قرى الضيوف واجازة الوفود، وعزة النفس والثقة بها والاعتماد عليها، والثبات والاصرار على ما يأخذ به ويجري عليه فقد تتزازل الجبال دونه ولا يتزازل، وشدة الحذر، وسوء الظن الذي عد من أزكى الفطن، حتى كان نصب عينيه قول الشاعر

وانما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول في الدنيا على رجل.

ولذلك تراه ينظر في كل شيء من شؤونه الخاصة، وشؤون البلاد العامة، حتى أمور المنزل وشؤون الضيوف والوفود ونفقاتهم، ومصالح البدو وصلاتهم، وقد أعطاه الله تعالى قوة غريبة فهو يشتغل بالنظر في ذلك كله عامة النهار ولا يشكو مللا ولا تعبا، وقد كلمته في مسألة الاشتغال بالجزئيات ووجوب نوطها ببعض العمال، وجعل وقته الثمين خاصا بالمصالح العامة والامور الكلية، ووضع نظام لذلك، فقال ان هذا ضروري لا مندوحة عنه ونحن لا نزال نجري على نظامنا القديم، والتحول عنه الى غيره لا يتأتى الا في زمن غير قصير، قلت نعم وانما الغرض وضع النظام له والبدء فيه

ومن أخلاقه وشمائله توخي التواضع في القول والفعل، مع المحافظة على الوقار وابهة الملك، والادب العالي في مخاطبة الجليس ومجاملته، مع الاشارة الى ما تقتضي

الحال من معارضته ، وهو على آدابه وتواضعه شديد الوطأة على المجرمين والمخالفين السياسيين، يأخذهم بأشد العقاب الذي يرهب كل من تحدثه نفسه بأن يعمل على شاكلتهم ، لا يخاف في ذلك لومة لائم ، (ومنها) العفة والنزاهة فهو مقتصد في تمتعه بالطيبات ، عزوف النفس عن الانهماك في الشهوات ، (ومنها) الشجاعة والاقدام على مكافحة الاخطار ، لا يخاف الموت على نفسه ولا على ولده ، ولذلك جعل أنجاله الاربعة قوادا لجيوشه ، يكافحون المهالك بأيديهم ، ويناطحون الموت بنواصيهم ،

وهو يحب وطنه (الحجاز) حبا عظيما ، ويكرم الحفاة العراة من أعرابه تكريما ، وطالما نوهنا بما علمنا من براعته في سياستهم وحفظ الامن بينهم ، وقد رأيناه يقضي في مقابلتهم عدة ساعات من كل نهار ، وهم يدمرون عليه بما اعتادوا من الحرية والاستقلال

أما معارفه وآراؤه في السياسة والامور الاجتماعية فليس الخوض فيها من مقتضى الحال في هذا الوقت ، ولم يكن يسهل العلم بتفصيلها من المذاكرات القليلة التي دارت بيني وبينه وان كنت كلمته فيها بحرية واستقلال قلما يكلمه بمثلهما أحد ، لانه قليل الكلام لا يطيل المراجعة والحوار في المسائل ليعلم كنه غوره فيها ، ولكن الزمان سيبين كنه ذلك كله بما يظهر من تصرفه في شؤونها . وقد وقفت منه على آراء سيكون لها أعظم شأن في سياسته (منها) يأسه من الدولة العثمانية ولولا هذا اليأس لما أقدم على ما أقدم عليه ، كما أشرت الى ذلك في خطبتي السياسية بمنى بين يديه ، ثم انه كلمني في هذا الموضوع بعد النزول من منى ، وعده من الامور التي عبرت فيها بالخطبة عن رأيه قبل الوقوف عليه (ومنها) انه له ثقة بالدولة البريطانية وتقديرا لقوتها وعظمتها لا حد لهما ، ولا سلطان لشيء عليهما ، (ومنها) ان ما شاهده من التطور والتحول في سياسة الدولة العثمانية وافضاء ذلك الى جعلها كالكرة في أيدي جمعية الاتحاد والترقي قد ضاعف ما في فطرته وتربيته من كراهة الآراء والافكار التي نشأ عنها ذلك الفساد ، وشدة الحذر من أصحاب أمثال هذه الآراء والافكار ، وقد ذكرت في هذه الرحلة ما كان أعجبني ووافق رأيي من خطته السياسية التي أفصح عنها في منشوراته ، وأشرت الى ما طرأ بعد ذلك من التحول فيها فلا أعيده ، وانما أقول انه جاء موافقا لما ذكرت هنا من آرائه الراسخة فظهر ان التجارب لا تزيدها الا رسوخا وثباتا

وانني أختم الكلام بتكرار الشكر والثناء على حسن ضيافته لي واكرامه إياي، فقد غمرني بكرمه وجوده، وكان من دقة لطفه وكمال ذوقه في ذلك أن جعله بطريقة لا مجال للاعتذار عن قبول شيء منه ، وقد كنت قلت أول مقدمي لبعض المقربين منه كلاما عن عادتي التي شرحتها في المنار عند رحلتي الى الهند ، وهي انني لا أقبل أن تشاب خدمتي للعلم وللملة والامة بشيء من شوائب المنافع الشخصية، حتى انني كنت أعلن في تلك الرحلة انني لا أقبل الهدية.. ورجوت أن يتلطف في تبليغ ذلك وان أدري أفعل أم لا ، ولكنني بعد شد الرحال وعند ارادة الركوب وصلت الي جائزة سنية ، أو هدية هاشمية ، أردت أن أكلم من جاء بها في شأنها فقال هكذا أمرت وأنا لا أعلم شيئا الا اني عبد مأمور أمرني سيدنا فنفذت أمره، وانصرف، فعجبت من هذا اللطف الدقيق ، والذوق السليم ،

طواف الوداع وتوديع الاخوان

في أثناء اشتغال وكيل الخرج وأعوانه بشد الرحال، طفت أنا ومن معي الآل والصحب طواف الوداع ، وكان ذلك بعد العصر ، وكنا قصدنا ان نركب في ذلك الوقت ، ولكن لم يتيسر لنا الركوب الا عند قرب غروب الشمس ، وودعنا قبل الخروج كثيرا من الاخوان والمحبين ، وركبنا وركب معنا بعض الاصدقاء مشيعين ، وفي مقدمتهم السيد الزواوي الكبير ونجله السيد عبد الرحمن والشيخ حسين باسلامه ومطوفنا ونجله ، وخرج معهم الاخ الرفيق الشيخ خالد ، أما سائر الرفاق والاهل فقد ركبوا في الشقادف من أول الامر ، وأما أنا فركبت البغلة التي أرسلت الي من الاصطبل الهاشمي مع اثنين حجاب الامير مشيا أمامي بملابسهما الرسمية، حتى اذا ماخرجنا من مكة المكرمة و بلغنا المكان المعروف بقهوة المعلم — وقد ذكرناه في الكلام على دخولنا مكة حرسها الله تعالى — ألفينا هنالك صاحب السيادة الشريف شرف حاكم مكة (القائم مقام الامير فيها) بالانتظار مع بعض رجاله وقد أنفذ للتوديع من قبل الحضرة الهاشمية نائبا عنها ، وعلمنا انه خرج منذ وقت العصر لانه هو الوقت الذي عين لخروجنا ولم يتيسر لنا الخروج فيه، فنزلنا وجلسنا معه قليلا واعتذرنا له عن تأخيرنا وشكرنا له هذا الانتظار الطويل ،

ثم صلينا المغرب مع المودعين جماعة وأتبعتها أنا والرفيقان بالعشاء مجموعة معها جمع تقديم ، ثم ودعنا السادة المشيعين، وركبنا الرواحل وسرنا باسم الله قافلين ، والحمد لله رب العالمين

ذيل لمباحث الحج في الصدقات وفقراء الحرم

اتي عند توديع السيد الزواوي قلت له قد بقي معي في الكيس خمسة عشر جنيها انكليزيا من النقود المخصصة للصدقة في الحرم لم يتيسر لي انفاقها فانا أوكلك في في توزيعها على المستحقين ، من أهل الصلاح والمروءة المحققين ، وأعطيته اياها ، فأرسل الي بعد عودتي الى مصر ورقة فيها أسماء من صرفها لهم ، ومقدار ما أعطى كلا منهم ، وعليها أختامهم . وبهذه المناسبة نقول كلمة في فقراء الحرم والصدقة فيه وفي غيره وما يتعلق بذلك كبحث السؤال

ان الفقراء المتسولين أول من يستقبل الحجاج قبل دخول مكة وآخر من يشيعهم عند الخروج منها عائدين الى بلادهم، وكذلك شأنهم عند الخروج من مكة الى منى فعرفات وعند العودة من منى بعد انقضاء أيامها. وأكثر هؤلاء المتسولين من صغار الصبيان والبنات ، يقل فيهم المراهقون والمراهقات ، فتراهم يحيطون بالحجاج من كل جانب ، رافعين أيديهم الى مقدم الهوادج، وألسنتهم تكرر الادعية المناسبة للاوقات ، فيذكرون في أدعيتهم قبل دخول مكة وعند الخروج الى عرفة أداء الحج وقبوله والعودة بالسلامة ، وبعد الحج زيارة النبي (ص) والوقوف بشباك حجرته الطاهرة ، ومنهم من يربط كوزا من الزنك ونحوه بطرف خشبة كالمعصا ويرفعها حتى تكون بين يدي الراكب فيكون ما يوضع في كل كوز خالصا لحامله ، وأما الصغار الذين لا يحملون هذه الكيزان فما يرضخ لهم يرمى على الارض فيستبقون لالتقاطه فيكون حظ النشيط القوي منهم أضعاف حظ الخامل والضعيف ،

السؤال محرم في الاسلام لا تبيحه الا الحاجة الشديدة أو الضرورة التي تبيح كثيرا من المحظورات كأكل الميتة ولحم الخنزير ، لانه ذل يدعو اليه الكسل وحب البطالة والاتكال على أوساخ الناس ، والضرورات عوارض تعرض لبعض الناس أحيانا وهي تقدر بقدرها شرعا ، وليس من شأنها أن تكون ملازمة للكثيرين من

الاصحاء القادرين على الكسب بحيث تبيح لهم أن يجعلوا السؤال حرفة يكون عليها مدار رزقهم، كما هو شأن أكثر السائلين في كل البلاد، بل يكون بعض هؤلاء غنيا شرعا تجب عليه الزكاة، وقد يأثل السائمة والعقار، واذا كان السؤال لغير ضرورة معصية محرمة وكانت الاعانة على المعصية معصية فعلى المسلم العارف باحكام الاسلام أن لا يرضخ بشيء لمن يعلم من حاله أنه قد اتخذ السؤال حرفة له، ولا لمن يعلم أيضا انه غير مضطر الى ما يسأله، بان كان يمكنه أن يستغني عنه، والمجهول حاله في ذلك موضع تردد ونظر، وأما من يعلم الانسان أو يظن من حاله انه يسأل عن ضرورة ولاغنى له عما يسأله ولا وصول له اليه بغير السؤال فالمندوحة للواجد عن مواساته والرضوخ له من مال الله تعالى، وقد يصل ذلك الى درجة الوجوب، كأن تعلم أن فلانا مضطر ولا يعلم بحاله أحد يرجى أن يزيل اضطراره سواك وأنت قادر على ذلك، ومثل هذه الصورة تقع للافراد القليلين وقلما تقع للكثير من الناس الا في أزمنة المجاعات العامة

انني قلما أعطي أحدا من السائلين الكثيرين في الشوارع بمصر، ولما رأيت هؤلاء السائلين خارج مكة عند قدومي اليها — وأنا لم أنس ما كان بلغنا ونحن في مصر من خبر العسرة والضيق في الحجاز وما سمعته مؤكدا لذلك في جدة — وجدتني متدفعا لاعطاء كل من سألني، ولما نفد ما كان في كيسي من الدراهم المعدة لنفقة الطريق من جدة الى مكة أذنت الرفيق الذي صحبني من جدة بأن يعطي من يعلم انه لم يأخذ مني ويحصي ما ينفقه لارده له بعد الاجتماع بالآل الذين كانوا يحملون نفقتنا في رحالهم. وكنت أردت أن أجري على هذه الطريقة مع السائلين في الحرم الشريف، ثم صدني عن ذلك انهم صاروا يجتمعون علي بكثرة عند الدخول ويحيطون بي بحيث يتعذر توزيع ما في اليد أو الجيب عليهم فكففت أنظره على بعد فيتركونني ويتهافتون عليه ثم تركت ذلك لما فيه من المشقة والشهرة ورأيت الراحة في الاخفاء. ولكن رفيقي محمد نجيب أفندي ظل يتحمل التعب والعناء في توزيع الصدقة على هؤلاء المتسولين في داخل الحرم وخارجه وله صبر طويل على ذلك. ومن غريب ما رأينا من دلائل البؤس والجوع في الفقراء الملازمين للحرم ان بعض

الناس جاء بشيء من الحبوب لحمام الحرم فاختطفوه وصار بعض السودانيين من الدكرور يأخذون منه ويضعونه في أفواههم ويمضغونه متغذين به كالدواب . وقد جرينا نحن على عادة الناس بالرضخ بالقليل للواحد من هؤلاء المتسولين بحيث كان صرف الجنيه الواحد يوزع على المئة أو المئات منهم، وانما تطيب النفس بما هو أكثر من ذلك للذين يتعرضون ولا يسألون ، والذين اذا سألوا يتجملون ولا يلحفون ، وانما ذكرنا هذا البحث وما وقع لنا من التجربة فيه ليستفيد منه غير العالم بما ذكرنا من الاحكام ، وغير الواقف على ما وقفنا عليه من التجارب ، ونسأل الله أن لا يجعل فيه شيئا من الرياء وشهوة الشهرة ، على أن صدقتنا مما ينبغي أن يستحيا من ذكره، فهي والحق يقال دون ما أنعم الله به علينا ، وما من أحد يحج ايمانا واحتسابا الا ويتصدق في الحج بحسب سعته لان الاعمال الصالحة يضاعف أجرها في ذلك الزمان وذلك المكان ، ومنهم من ينفقون هنالك فوق جميع ما يملك من المال، ولكن المتصدق العالم المخلص يجد عناء عظيما في تحري المستحقين الصادقين ، من أهل الايمان واليقين ، والصلاح في الدين، يجد هذا العناء في وطنه الذي يقيم فيه، فكيف حاله في بلد يجهل حال أهليه ، وقد كثر الكفر والابتداع في الارض ، وظهر الفساد في البر والبحر ؟ وليس هذا محل شرح هذه المسألة بالاسهاب، وقد ألممنا بها من قبل في المنار

القفول من مكة الى جدة

اننا لما ودعنا المشيعين الكرام وامتطينا الرواحل اخترت ان يكون محمد افندي هو الصاحب بالجنب لي ، وان يركب وكيل الخرج مع الاستاذ الشيخ خالد ، وكان المناسب أن يركب الاستاذ معي لما بيننا من التعادل والتوازن في الجسم، وطول الصحبة مع التوافق في التربية والرأي ، فإننا تعارفنا من أوائل العهد بمقدمي الى مصر، ولا أزال أهدي اليه المنار من ذلك العهد الى اليوم ، ولا أرى منه الا الوفاق والثناء والشكر، وإنما اخترت التفرق في الرواحل لثلاثة أسباب ترجيح ماذكرت من الجامعتين الجسمية والروحية بيننا (أحدها) ان في تفرقنا عدلا بين الراحلتين في التخفيف عليهما ، لان تعادلنا في الجسامة ، يقابله تعادل صاحبينا في النحافة ، (ثانيها) ان كلا منا يحتاج الى خدمة رفيقه في الراحلة ، ومحمد أفندي يرغب في

خدمتي لانني استاذه في الدين ، فلا يبقى لخدمة الاستاذ الا وكيل الخرج (ثالثها) ان صاحبي أجدر بالاستفادة مني لانه اعتاد منذ كان تلميذا الرجوع الي في أمور دينه ، فصرت لعلمي بشؤونه أقدر على افادته وإفتائه في أمره ، وصاحب الاستاذ أجدر بالاستفادة منه لانه ما فتئ مشتغلا بوعظ العوام وارشادهم ، وقد حيل بيني وبين ذلك في مصر فلم يقع لي فيها الا مرارا قليلة في السنين الاولى من هجرتي ، وأما في هذه السنين الاخيرة فلم يأخذ عني فيها الا بعض المدرسين وأذكياء طلاب العلم ، وكان من لوازم هذه القسمة بيني وبين صديقي إنني كنت أحسن حظا منه إذ كان صاحبي من الاتقياء المتعلمين في مدارس الحكومة حتى العالية فيها ، العارفين بأخلاق الناس وشؤونهم بطول اختباره وتجاربه في خدمة الحكومة المصرية ، وصاحبه من العوام ، على انه كان يمكنه ان يستفيد من اختباره لشؤون الحجاز وأصناف الحجاج ما لا يعرف الا من أمثاله المتمرسين بهذا الأمر

سرينا منفردين ليس معنا رفاق من المصريين ولا غيرهم ممن نعرف ، ولكنا وجدنا في الطريق عددا ليس بقليل من حجاج المغاربة منهم المشاة والركبان ، وقد بلغنا بحرة في وقت السحر فعرّسنا فيها ، [1] وكان الجوع قد بلغ منا لاننا لم نتعش قبل خروجنا من مكة فأكلنا مما حملنا من الزاد ، وكان جله من لحم خروف أهداه الي بعض المحبين لم نر مثله في طراوة لحمه ولينه ودسمه ، لا في الحجاز ولا في غيره ، وهو ليس من ضأن الحجاز . ثم نمنا قليلا اذ استيقظنا بعد طلوع الفجر فأدركنا صلاته بفضل الله تعالى

لم أر من بحرة في إلمامي بها ليلا قادما من جدة الى مكة الا ما على جانبي الطريق العام من المنازل التي يسمونها القهاوي وهي خاصة بالرجال ، وأكثر من ينزل فيها الرجال الذين لا يستغنون عما فيها من الطعام وشراب الشاي والقهوة ، وما يحتاجون اليه من الخدمة ، أو الذين يريدون الاستراحة قليلا وان كان معهم كل ما يحتاجون اليه ، وكنت حينئذ من هذا الفريق كما تقدم ، وفي هذه المرة نزلنا في المنازل التي يسمونها العشش وهي وراء تلك القهوات ، وقد رأيتها فوق ما كنت أحسب — رأيتها دورا في كل دار بيوت من الصيدان وبيت خلاء لها حائط منها يفصلها عن غيرها

(١) التعريس نزول المسافرين في آخر الليل للاستراحة

من الدور بحيث يكون النساء في كل منها في ستر تام غير معرضات لأعين أهل الدور المجاورة لها ، نزلت مع الوالدة والشقيقة في دار ، ونزل رفاقنا في دار بجانبها ، ومكثنا هنالك الى ضحوة النهار ، وقد نفد ما حملنا من مكة من الماء، فجاءنا وكيل الخرج بماء كدر غير عذب، فسألناه ألا يوجد ماء نقي عذب في هذه الارض ؟ قال بلى ولكنه قال لا يكفينا الماء ما معنا من أواني الشرب أقل من ريال ، فأمرناه بأن يأتينا بقدر الكفاية منه فجاءنا بماء لايفضل الاول الا بمضاعفة ثمنه، فكانت هذه كبرى سيئاته، جعلها خاتمة لخدمته، فكانت سبب حرمانه مما كنت أنوي أن أجعله علاوة له على الاجرة الوافية التي خصصها له الامير، وما كان يصيبه كل يوم بعد كفايته وكفاية أهله من فضل النفقة المعينة، وما أخذه من ذبائح نسكنا التي وكلناه بالتصرف فيها ، وقد سبق له مثل هذه السيئة معنا بمنى ، جاءنا بماء كدر لولا أن تداركنا أنفسنا بالبحث عن ماء نقي وفقنا له لما سلم أحد منا من مرض النزلة الشعبية التى ظهرت أعراضها في بعضنا ، ولكننا غفرنا له تلك . وأما هذه فلم نستطع تداركها، وسوء الخاتمة لا يغفر فنسأله تعالى أن يحسن خاتمتنا .

هذا وانا قد قاسينا من الظمأ في بقية يومنا وعامة ليلتنا بين بحرة وجدة مالم نعرف له نظيرا في تاريخ حياتنا، فكنا نبل أفواهنا من ذلك الماء عند الضرورة، وحاولت الاستغناء عنه بمص رب السوس فلم يغن شيئا . وفي هذه الحالة تذكرت ما كنت عازما على استصحابه من مصر فأنسانيه الشيطان وهو السكر الليموني أي الممزوج بحامض الليمون ، فأوصي كل مسافر الى تلك البلاد وأمثالها ان يحمل معه شيئا منه

وصلنا الى جدة قبيل الفجر فنزلنا في دار صديقنا الشيخ محمد أفندي نصيف وكيل الامارة الجليلة وقد نمنا بعد صلاة الفجر ساعات قليلة ، و بعد الاستيقاظ طلبت ماء سخنا للاستحمام فاغتسلت وغيرت ثياب الطريق وعلمنا ان أكثر الحجاج المصريين نزلوا الى السفينتين اللتين جاءوا فيهما فتبعناهم وزودنا صديقنا بأحسن الزاد، ونزل معنا هو وبعض الاصدقاء في زورق البلدية البخاري الى سفينتنا التي جئنا فيها (النجيلة) مشيعين، وكان هذا آخر عهدنا بأرض الحجاز، فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بالعودة اليها مرارا كثيرة حاجين ومعتمرين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين